القرآن الكريم
ثنائية اللغة والفكر قبالة المعاجز الحسّيّة
دراسة في السياقات الثقافية

أ.م.د. فراس صلاح عبدالله العتَّابي
الجامعة المستنصرية / كلية التربية / قسم اللغة العربية
salahroad@yahoo.com

تاريخ الاستلام : ٢٠١٩/١٢/٣
تاريخ القبول : ٢٠٢٠/١/١٩

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

الملخص:

يبدأ البحث مستفهماً حول سبب مغايرة المعجزة القرآنية للمعاجز الإلهية الحسيَّة السابقة بلحاظ إلحاح المشركين والكافرين على إنزال معجزةٍ حسيةٍ مشاهدةٍ كمعاجز الأنبياء السابقين وترفِّع القرآن عن إجابتهم ما يجعل زمن هذه الدراسة المبحوث فيه والتي ترغب بفك هذا الاستفهام يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد مع موسى (ع) وصولاً إلى القرن السابع بعد الميلاد مع معجزة النبي الأخير محمد (ص) في قراءة ثقافية لأبرز الأنساق الثقافية للطبيعة البشرية المراد لها الوصول صوب الاكتمال والنضج الثقافي، وبأدوات المنهج الثقافي الذي يسائل الزمن وطبيعته المتغيرة بحسب التصور البشري والعوامل الفيزيائية، والبيولوجيا التي ميزت (الانسان العاقل) عن غيره، والثقافة ذات الطبيعة القصدية في ارتقاء النوع البشري، واللغة/الفكر التي كلما تطورت أشَّرت تطورا في النوع البشري، وينتهي البحث بإشارته إلى البداية المكتملة للانسان الحضاري الأخير مع (الانسان القرآني)٠

الكلمات المفتاحية : اللغة – الفكر – المعاجز الحسية

The Holy Quran
Bilingual/ thought off sensual miracles
Study in cultural contexts

A. M.Dr. Firas Salah Abdullah Al – Atabi
Al-Mustansiriya University/ College of Education/ Department of Arabic Language
salahroad@yahoo.com

Abstract:

The research begins with a question about why the Qur'anic miracle differs from the previous sensory divine miracles by observing the polytheists and unbelievers to inflict a sensual miracle seen as the miracles of the previous prophets. Moses (p) down to the seventh century AD with the miracle of the last Prophet Muhammad (PBUH) in a cultural reading of the most prominent cultural patterns of human nature to reach cultural completion and maturity, and tools of the cultural curriculum that asks time and its changing nature Insulting human perception and the physical factors, the biology that characterized (Homo sapiens Homo sapiens) from others, the culture of intentional nature in the advancement of the human species, and the language / thought that evolved as I referred to the evolution of the human species, the research ends with reference to the complete beginning of the last civilized human with Quranic man).

Key words
Language – thought – censory miracles

القرآن الكريم

ثنائية اللغةوالفكر قبالة المعاجز الحسيّة

دراسة في السياقات الثقافية

- لماذا لم يمنح الله المشركين بحسب القرآن الكريم المعجزة التي طلبوها ؟

((وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ))(الانعام:١٢٤)(al-An'am: 124)

((وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ))(الانعام : ١٠٩) (al-An'am: 109)،

((وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَلُونَ))(الاسراء : ٥٩)(Al-Isra :59)،

- ولماذا جاءت معجزة النبي (ص) قرانا محكم الكلمات ولم تماثل سابقاتها من المعاجز التي ذكرها القران للأنبياء الآخرين؟

((كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ))(فصلت: ٣)(Fussilat: 3)

((تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِا لْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ))(البقرة :١٥٢)(Al-Baqarah: 152) ،

((وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ))(البقرة : ٩٩)(Al-Baqarah: 99) ،

يجيب البعض بأن معاجز الأنبياء تأتي على جنس ما اشتهر في زمنهم من معارف ((ولذلك كانت معجزة موسى ع من جنس السحر، ومعجزة عيسى ع من جنس الطب، وهكذا جاءت معجزة النبي ص من جنس الفن الذي اشتهر به العرب، وبلغوا به الذروة وهو فن البيان، فامتازت عن غيرها بأنها معنوية ، إذ أنّ المعجزات الحسية تزول بزوال مشاهديها زمن النبي))(عبد الله، ٢٠١٠، ص١٣)(Abdullah, 2010:p 13)، وما تقدم من جواب كان متبنى الباحث في بعض من كتبه، ورسائله السابقة حتى زمن هذا البحث إذ أنَّ هذه الإجابة هي الإجابة الشائعة، والبديهية في معظم التفسيرات التي عرضت للإجابة عن هذا التساؤل مع ملاحظة أنّ التراكم التفسيري، واستطالته، مع اتكائه على المتون التفسيرية الأولية يجعل من إجابات بعض الأسئلة في دائرة المسلّمات التي لا تحتاج إلى مزيد بحث أو استفهامٍ، لاسيما وأنَّ تاريخ التفسير قد ضبط ما ينوف على ألفين ومائتي تفسير(نويهض، ١٩٨٨: ص٣٢)(Noueihed, 1988:p 32) في مختلف المجالات التفسيرية التي لا تختلف في الكثير من الأحيان على ما يعد من المسلّمات، وهذا

القول ليس دعوة للمغايرة أو الاختلاف لداعي الاختلاف ،وإنَّما هو استجابة لقوله تعالى ((أَفَلَا يَعْقِلُونَ))(يس:٦٨)(Ys Sin : 68)؟ و ((أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ))(الانعام: ٥٠)(al-An'am: 50)؟ وانسجاماً مع طبيعة العقل البشري العلمي الذي يطمح من وراء التساؤل إلى إشباع حاجته المعرفية، وبالعودة إلى مثار الإجابة السابقة ، أي التساؤلين المتقدمين فلا يرى البحث نفي ما جاء عليهما من إجابة شائعة، ولكنه يحاول في السطور اللاحقة تعميق الجواب بلحاظ المعارف اللغوية/الفكرية، وبوساطة الحفر في طبيعة الثقافة البشرية لمجتمعات الأنبياء زمن المعاجز المذكورة في القران الكريم، وهنا لن نستقصي الأنبياء الخمسة والعشرين المذكورين في كتاب الله العزيز وإنما سنكتفي بأصحاب الكتب المنسوبة للديانات الإبراهيمية فحسب، وذلك لمحدودية التفسّح في مجال البحوث الأكاديمية، وللحفاظ على حدود عنوان البحث ، فموسى (ع) الذي أعجز السحرة بعصاه كان موجوداً كما يشير الربانيون، في رواياتهم المختلفة لعصر ظهوره، في المدة الزمنية المحصورة بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر قبل الميلاد(الأنبا تكلا هيمانوت: إيميل: web@st-takl.org)(Takla Haymanot: Email: web@st-takl.org) في مصر ذات العقلية البشرية المنسجمة مع الطبيعة السحرية، والإحالات ذات المرجعيات التي تؤمن بالقوى الخارقة المسيطرة على قدرة الانسان وأفعاله، والمرتبطة بالتجسيم الحسي المبهر فجاءت قبورهم أهراما تجسد اعتقاداتهم، وكتابتهم الهيروغلوفية صوراً حسية تعكس أثر المشاهدة الحسية في تحويل اللغة إلى صور مرئية فكانت حضارة عينٍ، ورؤيةٍ، وحسٍّ، وسحرٍ كما تشير إلى ذلك الدلائل المتواترة ، ومن هذه العقلية البشرية ذات الطبيعة الثقافية التي تؤسس الأشكال، والصور، والأبعاد الحسية ما لا يؤسسه التجريد فيها، جاء موسى (ع) بمعجزته التي تنسجم مع ثقافة هؤلاء القوم الذين كانوا من المبرزين على المستوى البشري حين ذاك من ناحية التطور الحضاري، ولكنه تطور كما أشرنا دائر في حلقة العقل الحسي، لا العقل الذي يجرِّد الأشياء، ويحتكم إلى صوت المنطق في الإحالات المرجعية للأشياء، والظواهر، ويعضد ما نذهب إليه في هذا الرأي قوله تعالى في سورة الزخرف المباركة: ((ونادى فرعون في قومه قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقرنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنَّهم كانوا قوما فاسقين))(الزخرف ٥١ - ٥٤) (az-Zukhruf: 51-54) دعا فرعون قومه مجابهاً حجج موسى (ع) بحجة الإبصار دون البصيرة، وبحجة الملك دون التمليك، وبحجة الأنهار الجارية دون السؤال عن قدرة مجريها، وطالب موسى (ع) أن يأتيه بالمستوى الصوري نفسه بأن يُشاهد مالكا للمعادن الثمينة، أو أن يظهر لهم بصورة سحريةٍ غير بشريةٍ ، بصورة الكائن المحفوف بالملائكة المشاهدة حوله، ودفع فرعون بذلك عن موسى صورة

النبي المرسل من الله عز اسمه بأنه بشري محض كغيره من البشر الآخرين بلا سلطان مرئيًّ، أو غنىً حسيًّ، فالسياق القرآني هنا ذو دلالة كلية تشير بوضوح إلى العقلية الثقافية ذات الإحالات البصرية الحسية غير المجردة، إنَّها عقلية وإن كانت متميزة على صعيد الفعل الحضاري في زمنها إلّا إنها محجوزة في حلقة المادية الحسية المباشرة على مستوى الفعل الثقافي، إذ أنَّهم حتى بعد رؤيتهم للآيات المتعددة التي بعثها الله على يد موسى (ع) يخاطبوه وهم مستغيثون باسم الساحر لا باسم النبي المرسل ((وما نريهم من آية إلّا هي أكبر من أختها أخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا يا أيها الساحرُ ادعُ لنا ربكَّ بما عهدَ عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذابّ إذا هم ينكثون))(الزخرف ٤٨ – ٥٠)(az-Zukhruf: 48-50) ، والخطاب دليل على فكر المخاطِب ، ونحن هنا إزاء حلقةٍ بشريةٍ ثقافيةٍ سحريةٍ، حسيةٍ، ماديةٍ لا ترتقي إلى المستوى الذهني المتقدم، لذلك فهي لن تنحاز إلّا لما تؤمن برؤيته نظرَ العين ، فجاءت المعجزات لهم بما يناسبهم من إدراكٍ ثقافيًّ، جاءتهم في صورة موسى ذي البنية الجسدية المتميزة بالقوة، والجمال، فأما ما يشير إلى قوته قوله تعالى : ((ولما بلغ أشده واستوى ... ودخل المدينة ... فوجد فيها رجلين يقتتلان ... فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ... فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنَّك لغويٌّ مبينٌ . فلما أراد أن يبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريُد أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس))(القصص:١٤ – ١٩)(al-Qasas: 14-19)، والآيات المتقدمة توضح القوة الجسدية التي انماز بها نبيُّ الله موسى (ع) فهو قادر على إزهاق روح مقاتليه بحركاتٍ بسيطةٍ، كما أنَّ الآيات تظهرُ خوف مستصرخه منه، ما حدا به إلى تذكيره بمبادئه الأخلاقية وهي عدم رغبة موسى (ع) في مجاراة الظالمين أولي الجبروت، ما أوقف موسى(ع) عن إيقاع الأذى بالذي استصرخه، وهو دليل آخر على شدة موسى فالنبي المصطفى (ص) يقول: ((ليس الشديدُ بالصرعةِ ولكنَّ الشديدَ من يملك نفسه عند الغضب))(البخاري، (٥/ ٢٢٦٧)، رقم: (٥٧٦٣)، ومسلم، (٤/ ٢٠١٤)، رقم: (٢٦٠٩))(Al-Bukhari, (5/2267), No.: (5763), and Muslim, (4/2014), No.: (2609))، وأما دليلنا على وسامته التي اجتمعت فيها الهيئة المتميزة صورياً مع الأخلاق الرفيعة حكاية القران عن إحدى ابنتي شعيب (ع) إذ قالت ((يا أبت استأجره إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويَّ الأمينُ))(القصص : ٢٦)(al-Qasas: 26) فيدرك الأب النبي ذو العقلية اللماحة ما وقع في نفس ابنته من هيئة موسى (ع) فيقول: ((إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين))(القصص : ٢٧)(al-Qasas: 27) ، ومن هنا جاء موسى عليه السلام مع معاجزه شكلاً وتمظهراتٍ في الحدود الحسية التي تناسب السياق الثقافي الذي أرسل إليه ليهذب اعتقاداته الدينية المشوهة فكانت المبارزة بينه وبين فرعون في الإطار السحري الذي تصور فرعون أنَّ موسى (ع) يشتغل فيه فحشد السحرة لمجابهته، فلما أدرك السحرة أنَّ ما يواجهونه مغاير

لاشتغالاتهم التخييلية، وهم المتميزون بحرفتهم هذه خروا سُجداً لإدراكهم أنّ الذي يشاهدونه ما هو بفعلٍ بشري بل أمُر خارقُ للعادة فدفعوا حياتهم ثمنا لاعتقادهم به وعلة ذلك ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر: ٢٨)(Fatir: 28)

أما السفهاء فهم مغمورون بتصوراتهم التي تحجب عنهم الإعجاز الحق، فهم يريدون رباً مرئياً مشاهداً بالعين، لا مجرداً متعالياً ((لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير))(الانعام: ١٠٣)(al-An'am: 103)

ثمَّ حين فرَّ موسى(ع) بدينه ومن آمن معه بعيداً عن مصر بقي المصريون على معتقداتهم الوثنية الصورية، وهذا ليس شأنا تعلق بهم دون سواهم من بشر تلك المرحلة الزمنية بل أنّ من آمن بموسى وفرّ معه ما أنْ شاهدوا قوماً عاكفين على أصنامهم حتى طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً إلهاً كآلهة الآخرين ((وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون)(الاعراف: ١٣٨)(al-A'raf: 138)، إنّه كما يشير أحد الباحثين(كاظم،٢٠١٩ :ص٢٩٢)(Kazem, 2019: p292) صراع بين النيّة المؤمنة حديثاً ،وبين البنية الثقافية المترسخة في الوعي البشري، ما يقطع باليقين مساحة الشك أن التغيير الثقافي يحتاج ممارساتٍ ثقافيةً مستمرةً ،ووعياً ذهنياً مرتفعاً يتفوق على حدَّ الإبهار الصوري، الذي يُختزل فيما بعد مشاهدته ، بالذكريات التي قد تبهت بعد مدة من الزمن ، أو التي قد يشوبها التداخل بالمخزون الذهني للذات المتذكرة، وحادثة قوم موسى (ع) هذه والمتمثلة بطلبهم إلهاً حسياً ليست حالةً شاذةً في سطح إيمانهم بل هي انغراسُ ثقافيٌّ في عمق بنيتهم الذهنية بدليل قوله تعالى واصفاً حال العبرانيين بعد ذهاب موسى (ع) لميقات ربه ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهِّم عجلاً جسداً له خوارُ))(الاعراف: ١٤٨)(al-A'raf: 148)، فالمعنى الذي تظهره الآيات: إنَّ الإعجاز الذي جاء به موسى(ع) لم يعتمل في الذهنية المرباة على ثقافة عصرٍ صوريَّ حسيَّ غير مجرد التفكير، ولكنهَّ ضروريٌ في الوقت نفسه لرفعهم من مساحة الأولية الاعتقادية إلى مساحة التمهيد الذهني لعقليات بدائية التصور تتلاقح مع معتقدات تتعاطى ((عبادة الثور القمرية، ذات الجذور السومرية المنتشرة في الفضاء الثقافي للشرق الادنى برمته))(اللسانيات الانثروبولوجية: ص٢٩٢)(Anthropological Linguistics:p 292)، نعم إنَّه صراع الثقافة إزاء الثقافة ، ثقافةٍ وثنيةٍ مترسخةٍ، وثقافةٍ سماويةٍ مجردةٍ ، ولذلك جاءت المعجزة الموسوية من جنس ما اشتهر نعم، ولكنها في الوقت نفسه تعاطت مع الطبيعة الذهنية لعصر نزولها إذ إنَّها تتعامل مع ذهنيات حسيةٍ لا مجردةٍ، أما مع عيسى (ع) فالأمر أكثر تطوراً فاليهودية بوصفها ديانة موجودة إلى جوار الديانات الوثنية، ولكنها بعد ما لا يقل عن أَحَد عشَر قرناً انزاحت كثيراً عن خط موسى (ع) فأخذت من الحضارات العراقية الشيء

الكثير لاسيما بعد السبي، وأسقطت كذلك انكسارات العبرانيين النفسية على طبيعة الاعتقاد اليهودي في معاداة الآخر بالمعنى الفلسفي لا سيما الحضارتين العراقية، والمصرية القديمتين(العتابي،٢٠١٨ : ص ٦٥)(Al-Atabi, 2018: p65) ، هنا ومع هذا الخليط المتداخل من الاعتقاد العبراني لابد من معجزة تُلزم المحرفين الحجة، وتكون منطلقةً من فكري منسجم مع سياقهم الذهني فيأتي عيسى (ع) متكلماً في مهده، يقول ربُّ العزة واصفاً هذه المعجزة: ((فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا))(مريم: ٢٩ – ٣١)(Maryam: 29-31) يشير القران الكريم الى أنّه أبهرهم بتكلمه، ثم إن قوله الأول لهم كان مزيحاً لطبيعتهم الذهنية في الاعتقاد فهو لم يقل إنّي معجزة، أو أنني متعالي القدرات بل قال (إنّي عبد الله) إنها كلمته الأولى، وهي كلمة العبودية التي تزيح ضامراً مخشياً منه، وهو تأليهه فيما بعد بالقياس على هذه الذهنيات الثقافية، وبالفعل حصل ما جاءت كلمته الأولى دافعة له فقد ألهوه حين رأوا قدرته على الإحياء، أو الشفاء قال تعالى: ((وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ))(آل عمران: ٤٩)(Al-Imran: 49) إنَّ عيسى المسيح (ع) مع كل معجزة يدفع عن نفسه شبهة الإلوهية فيكرر (بِإِذْنِ اللَّهِ) مع نفخ الحياة في الطير، ومع إبراء المرضى، ولكن مع سياقٍ ثقافيٍّ تفشّت فيه دعوات أبناء الآلهة من الحكام الذين كانوا ينحلون أنفسهم هذه الصفة، ومنهم القيصر الروماني زمن عيسى (ع)، فهو وفق الرومان إلهٌ، وابن إله وهو المدعو أغسطس قيصر(موقع الأنبا تكلا: الامبراطور أغسطس قيصر)(St. Takla's website: Emperor Augustus Caesar) ، وكذلك فعل اليهود بأن جعلوا لله ابناً ((وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ))، وهذه الآية تشخص عمق الاستجابة الثقافية في احتذاء المشابهة مع الكافرين ومحاولة مضاهاتهم ما شاع في سياقاتهم الثقافية بأن يجعلوا ابناً لله سبحانه وتعالى علواً كبيراً عما يصفون ، نعم لقد جاءتهم المعجزات الحسية التي تتناسب مع وعيهم الثقافي من جانب، ومع طلبهم لها من جانب آخر، فكذبوها، أو حرفوها، أو نسبوها لغير ذي العزة جلّ اسمه الكريم، وقتلوا أنبياء الله عدواناً وإثماً حتى أنَّ القران الكريم يصور لنا في جانب استباقيٍّ دفاع عيسى (ع) عما آلت إليه دعوته الكريمة ((وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ))(المائدة: ١١٦-١١٧)(al-Ma'idah: 116-117) إنه التسبيق على وفق الخصائص الزمنية للثقافة، فالنهاية، والبداية متعالقتان في نقطة محددة، ولتقريب الفكرة نحيل إلى شكل الدائرة الهندسي فنهاية خط الدائرة يلتقي مع بدايته، وكذلك الزمن في البعد الثقافي، والذي نخص منه في بحثنا هذا زمن الرسل، فالبداية على تواشج كبير مع النهاية، ولأنَّ الأمر غير مطروح في الدراسات العربية بشكل كبير بحسب معلومات الباحث المتواضعة، ولأنَّه من اهتمامات الثقافيين الغربيين نجد لزاما علينا أن نعمق المصطلح الذي نشير إليه هنا بالأمثلة المناسبة فالنبي محمد (ص) يوصف بالخاتم بفتح التاء في إشارةٍ لغويةٍ واضحةٍ لالتقاء النهاية بالبداية فهو المتمم لرسالات السماء، وهو الكلمة التي تختتم بها التهيئة الإلهية للبشر للسير على جادة العقل والمنطق السوي يقول (ص): ((لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك))(الألباني (٩٣٧))(Al-Albani (937))، وكذلك قولنا عن الخاتم: المحبس الذي يحيط الإصبع وتلتقي بدايته مع نهايته ، ويشير (مايكل كول) في كتابه علم النفس الثقافي إلى مصطلح التسبيق بقوله: ((أنَّ لدينا من جهة المنشأ الجيني فكرةٌ جيدةٌ عن الطريقة التي يرتبط بها الماضي بالمستقبل والحاضر. فالشفرة الوراثية التي تتجمع من الماضي عندما يتحد الحيوان المنوي بالبويضة لحظة الإخصاب تقدم القنوات الحالية، والمستقبلية التي يمكن أن تجري في حدودها عملية التطور البيولوجية.وعندما تتكاثر الخلايا فإن بنيات جديدة محددة تأتي إلى الوجود. مثال ذلك أن الأيدي تبدأ في الظهور بعد حوالي خمسة أسابيع من الإخصاب على شكل براعم طرفية. وبسرعة كبيرة تتكاثر الخلايا وتستطيل براعم الأطراف متخذة شكل المجذاف وهو الذي سيصبح يدا بخمس أصابع ذات عضلات وعظام وأوتار وخلايا عصبية تتخذ هيئة ملائمة ليد بشرية. وما كان لشئ من هذا أن يحدث ما لم تكن الشفرة الوراثية قد قدمت الضوابط الضرورية بشكل مسبق. إنه بهذا يدخل الماضي إلى المستقبل كيما تكون النهاية قابعة في البداية))(كول، ٢٠١٧م، ص ١٤٩-٢٥٠) (Cole, 2017:p 149-250) العلماء الثقافيون على وفق هذا المعطى ويدور مع التصور الفيزيائي للزمن في كونه نسبياً، فما نراه اليوم قد يكون أمسا عند البعض ،أو غداً عند آخرين وإذا كان هذا حال الزمن الفيزيائي بوصفه نسبياً، فما حال الأزمان الباقية، ومنها التخيلي، أو النفسي، أو السردي، أو غيرها من الأزمان؟ وعند نقطة الزمن هذه نعود إلى زمن عيسى(ع) والمساءل من ربَّ العزة عن تأليه قومه له، والسياق القرآني في الآيات المباركات يشير بشكلٍ جليّ إلى أنَّ السؤال ليس في زمن دعوة عيسى (ع) بل كان بعد أن توفاه الله جلَّ اسمه الكريم إليه، أنَّها البداية والنهاية معا، أو إنها بمعنى آخر لحظة انجلاء الحق عن كل ما يدلسه من أوهام حاقت به بفعل العقليات الحسية المؤسطرة للإعجاز الإلهي، إنَّها لحظة التصيير الذهني بالنسبة لأولئك الأقوام، أو بالنسبة للبشر جميعا

بمعنى أنهَّا مراعاة أحوال المتلقين بحسب وعيهم، أو كما يقول المصطفى الخاتم (ص): ((أمرِنا معاشَر الأنبياءِ أن نخاطبَ الناسَ على قْدرِ عقولهم))(المجلسي، ١٤٣٠ هـ:٢٥/٣٨٤) (Al-Majsi, 1430 AH: 25/384) ،

ويذكر الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ما قاله الجاحظ معبراً عن سياق الموقف بقوله : ((أما بلاغةُ المتكلم فهي مطابقتهُ لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلفة فإن مقامات الكلام متفاوتة ... ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكلَّ كلمةٍ مع صاحبتها مقام)) (الخطيب القزويني،٢٠٠٣،١: ١/٩) (Al-Khatib Al-Qazwini, 1/1/2003: 1/9).

أما الباحثون المحدثون فقد عدّوا السياق من نتائج البحث الدلالي الحديث ، الذي يؤدي ((ترتيب الحقائق في سلسلة من السياقات : أي سياقاتٌ كلٌّ واحد منها ينضوي تحت سياق أخر ، ولكلَّ واحد منهما وظيفةٌ بنفسه ، وهو عضوٌ في سياق اكبر ، وفي كل السياقات الأخرى ، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة))(اولمان، ١٩٩٧، ص٥٦) (Ullman, 1997:p 56)، فالوعي البشري هو قدرة الاستيعاب الذهنية ،والتحليل المنطقي في الذوات المفكرة، ولقد تطور النوع الانساني كما يشير (ثيودوزيوس دوبجانسكي) من خلال التئام جزأي البيولوجيا والثقافة فـ ((تاريخ النوع البشري يعود إلى التفاعلات بين المتغيرات البيولوجية والثقافية. من غير المجدي، في هذا السياق، محاولة فهم البيولوجيا البشرية إذا تجاهل المرء التأثيرات الثقافية، تماما كما أن من غير المجدي محاولة فهم أصل الثقافة وصعودها إذا تجاهل المرء الطبيعة البيولوجية للبشر))(كول، ٢٠١٧، ص ٢٢٨) (Cole, 2017:p228) فقد مرت الرحلة البشرية بأطوار ومراحل طويلة للوصول إلى سنَّ الرشد الانساني من خلال التفاعلات البيولوجية والثقافية مع الطبيعة حتى بلغ العقل الانساني مرحلة النضج البشري من الناحية البيولوجية وهذه هي المرحلة الآدمية في العقل الانساني، مرحلة العقل القادر على الحكم على الأشياء وفقا للمُدخلات الذهنية والسياقات الثقافية التي توافر عليها الذهن المتلقي ، فمع آدم (ع) اكتمل العقل البيولوجي للنوع الانساني، ثم بدأت الثقافة صيرورتها بفعل الخبرات اللغوية الفكرية، فوفق عقيدتنا القرآنية إن آدم (ع) تم اصطفاؤه من النوع الانساني ليكون أول البشريين نبياً، ورسولاً، وداعياً للتصورات المنطقية في الحياة البشرية، يقول تعالى في سورة آل عمران المباركة ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ))(ال عمران :٣٣)(Al-Imran: 33) والاصطفاء كما يشير صاحب اللسان هو ((الاختيار، افتعال من الصفوة. ومنه النبيّ(ص)، صفوة الله من خلقه ومصطفاه، والأنبياء المصطفون، وهم من المصطفين إذا اختيروا))(ابن منظور:٧-٨/٢٥٨)(Ibn Manzoor: 7-8 / 258)، وهذا الاصطفاء الذي تشير إليه الآيات المباركات ابتداء من آدم (ع) وصولا إلى الخاتم من المصطفين محمد (ص) هو اصطفاء،

وانتخاب ثقافي لشريحة فكرية معينة بغية تغليبها على شرائح دونها في الرقي الفكري، أما الوسيلة التي تتوسط النقل لهذه الثقافات المنتخبة والمصطفاة فهي اللغة و الفكر/ والتي تراكم التفاعلات والخبرات البشرية الثقافية، وتنتقل جيلاً بعد جيل بصورة قصدية، فبإمكان الثقافة أن تنتشر استجابة لقراراتٍ واعيةٍ، وذلك لأنَّ ((الثقافة تتقدم في الغالب عن طريق الاختيار المتعمد لممارساتٍ معينة من عددٍ كبيرٍ من المتاح منها. بهذا المعنى إذن تعُد الثقافة غائيةً، أو هادفةً بشكل غير متاحٍ على الإطلاق للتطور البيولوجي))(كول، ٢٠١٧، ص ٢٢٧)(Cole, 2017:p227)

فمنذ أربعين ألف عام تقريباً برز هذا الإنسان الثقافي الذي أطلق عليه (Homo sapiens sapiens) بمعنى (الإنسان العاقل العاقل) الذي انماز بكونه ناقلاً لخبراته الفكرية، ومصنعاً للمنتجات التي لم تشمل الأدوات فقط وإنما ((تماثيلَ حجريةً، وتقاويمَ قمريةً، ورسومَ كهوفٍ، أي نطاقاً من المنتجات يشي بوجود الثقافة البشرية. ....- و- يذهب بيكرتون إلى أنَّ اللغة والقدرة على خلق المنتجات كانت العامل الحفاز للشكل الجديد نوعياً من التفاعل بين النوع والبيئة المميز (للإنسان العاقل العاقل)، وهو موقف يتفق بوضوح مع المنظور التاريخي الثقافي))(كول، ٢٠١٧، ص ٢٢٦) (Cole, 2017:p226) ، ومن هنا ندرك بشكل جليٍّ إنَّ تطور الانسان ليس بسبب تكيف اعضاء جسمه من فكٍ وأسنانٍ وغيرها بحسب النظرة (الداروينية) (كول، ٢٠١٧، ص ٢٢٦) (Cole, 2017:p226) بل إنه تطور بسبب الثقافة التي كان وسطها الناقل على الدوام اللغة و الفكر، فـــ (تشارلز دارون) نفسه يعترف بوجود فجوةٍ كبيرةٍ جدا بين عقل أحطِّ المتوحشين من البشر ((الذين لا توجد لديهم كلماتٌ للتعبير عن أيِّ عددٍ يزيد عن أربعة، ولا يكادون يستخدمون أيَّ مصطلحاتٍ تجريديةٍ للتعبير عن الأشياء المألوفة، أو عن العواطف، بعقل أكثر القردة تنظيماً)) (كول، ٢٠١٧، ص ٢١٣) (Cole, 2017:p213) فأحطُّ الثقافات البشرية أكثرُ تميزاً من باقي المخلوقات، ثم إنهَّ كلما تطورت اللغة عنى ذلك اتساعاً في الثقافة ، واستجابةً لمتنوعاتٍ معرفيةٍ متكثرةٍ، وكلما ازداد التجريد يعني انتقالاً من الحسي الأولي إلى الذهني المتفوق في التعالق المعرفي للذهنية المجرِدة، وهذا ما يشير إليه (دارون) في أنَّ الملكات الفكرية المتطورة جداً ما هي إلاّ نتيجة الاستعمال المستمر للغة متطورة للغاية(كول، ٢٠١٧، ص ٢١٣) (Cole, 2017:p213) ، وهنا نصل إلى أهمية اللغة في التنشئة الذهنية فكلما تطورت اللغة كان حاملها أقدر على تمثل الأفكار المتطورة وإذا ما بحثنا عن إحصاء اللغات بحسب مفرداتها من غير سبر عدد المعاني لأنَّ ذلك الباب بابٌ غيرُ قابل للإحصاء إذ إنَّ المعاني تتوالد وتتكاثر بحسب التراكيب الجُملية فضلاً عن معاني المفرادت الأوليةً وكذلك تتكاثر بحسب الأبعاد الدلالية للمرسل والمتلقي، ولهذا سنتساءل فقط عن عدد المفردات للتعرض إلى سبب الإعجاز البياني الذي جاءت به الرسالة الخاتمة على النبي الأخير محمد (ص) دون أن تكون المعجزة من

خوارق العادات الحسية كما كانت تأتي على من سبقه من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، فالإحصائيات تشير إلى إلى تفوق اللغة العربية على أقرب منافساتها بأكثر من إحدى عشرة مليون مفردة، إذ تزيد عدد كلمات اللغة العربية على اثنتي عشرة مليون كلمة بينما يبلغ مجموع مفردات اللغة الروسية مائة وثلاثين ألف كلمة، وكلمات اللغة الفرنسية مائة وستين ألف كلمة، ومجموع كلمات اللغة الإنجليزية التي تعدُّ أكثر لغات العالم انتشاراً في وقتنا الحاضر ستمائة ألف كلمة، مايعني تفوق اللغة العربية عليها بعدد المفردات بخمسة وعشرين ضعفاً تقريباً(https://al-ain.com/article/arabic-facts-numbers-international-day?fbclid=IwAR16lJn83WtABrJJj-9yhiNNxv_c2dqh1HGq_scugZUuIaGpvi4-YclB_-4#.XYnpQUxbjJo.link) وهنا نقف إزاء آلاء الله عاجزين عن عدَّها أو شكرها فشكرها يحتاج الى شكر وذلك بحسب وعينا إذ كلما اتسع الوعي اتسعت الدلالة معه، ومع لغة تربو على اثنتي عشرة مليون مفردة لا نستطيع إلّا أن نعلن العجز المطلق إزاء دلالاتها اللا متناهية اذ تتسع هذه اللغة بحسبَّ كُلّ وعيَّ، ومع ارتفاع كلَّ وعيَّ ينماز انسان على صاحبه بها حتى يبلغ البلغاء مبالغ الإبهار أما إذا تكلمنا عن الخالق جلَّ اسمه فهو القائل في هذا الشأن وقوله الحق ((قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا))(الكهف: ١٠٩)(al-Kahf: 109)، فالخلق والبيان هما أهم نعمتين بعد نعمة القران الكريم وذلك بحسب القرآن الكريم فـــ((الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))(الرحمن : ١ – ٤) (ar-Rahman: 1 - 4) ، فالخلق وجود، وعكسه العدم، ومن نعم الله على البشرية أن أوجدها واستخلفها دون سواها من مخلوقاته الأخرى التي كانت تتمنى هذه الأرض، وفي هذا الاستخلاف الذي حازه الانسان دون غيره قال تعالى ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ))(البقرة : ٤٠)(Al-Baqarah: 40) إنَّ الملائكة التي تقدس الرحمن وتسبح له كانت تتمنى ما حظي به الانسان، ذلك الكائن الذي وجدته غير آهل لهذه الهبة الإلهية، ولكن ربَّ العزة هو الخالق والعالم بكل شيء، فهنالك سيأتي الانسان الذي يتفوق حتى على الملائكة المسبحين والمقدسين إنهّ الانسان القراني، فإن كان (Homo sapiens sapiens) بمعنى (الانسان العاقل العاقل) هو الذي مثلَّ مرحلة انتقال البشرية الى الدور الانساني العاقل كما بينّا في الصفحات السابقة ، فإنَّ (الانسان القراني) هو الذي يمثل مرحلة وصول الانسان الى الذروة الانسانية التي أرادها الله جلَّ اسمه الكريم لهذا الخليفة، وإذا كان (بيكرتون) يذهب إلى أنَّ اللغة، والقدرة على خلق المنتجات هي أساس التطور الثقافي في المراحل البشرية الأولى للإنسان فإن اللغة والوعي المتصاعد باتساع الدلالات الإلهية حدّ الذروة مع الأنبياء، ولاسيما مع خاتم مشروعهم السماوي محمد (ص) ومع السائرين على

منهجهم الإلهي هي ذروة التطور الثقافي و الانساني، وإنْ كان الفيلسوف السياسي الأميركي (فرانسيس فوكوياما) يرى أنَّ نهاية التاريخ والإنسان الأخير ترتبط بالمبادئ الليبرالية الديمقراطية وقيمها، فإننا نرُّد عليه قوله بأنَّ الانسان الأخير هو الخاتم الذي بعثه رب العزة بالمبادئ القرآنية التي تصلح لكل عصرٍ، ومصرٍ، وتتسع دلالاتها بحسب وعي الحامل لهذه القيم فكونها الأخيرة لا يعني عدم مواكبتها لتطورات النوع البشري، فأحداث العالم لا تتوقف ولكن بمعنى أن هذه الرسالة الخاتمة تتمتع بصلاحية تجعلها تنتصر على صعيد الأفكار والمبادئ، والذي يستغرب له الباحث وهو يكتب هذه السطور كيف يتناص هذا الفيلسوف السياسي الأميركي مع دعوتنا الإسلامية التي سبقت كتابه هذا بأربعة عشر قرناً فنحن المسلمون نصف نبينا(ص) بالتوصيف الإلهي له وهو الخاتم أي الأخير بين الرسل والأنبياء، وهو- (فوكاياما) - يوصف العقل الغربي ذوالليبرالية الفكرية بكونه الأخير من ناحية الحمولة القيمية لهذا الانسان ويوصف العصر الذي أنتج هذه الأفكار بأنةَّ نهاية التاريخ بمعنى: إنه خلاصة الصيرورة الذهنية للتطور الثقافي البشري، بينما سبقته رسالتنا المباركة إلى هذه الدعوة في كون نهاية التاريخ مع القرآن الكريم المنزل على محمد (ص) للعالمين جميعا، ونعود لننبه إلى أنَّ النهاية هنا لا تعني الجمود بل تعني اكتمال النظرية البشرية التي تعطي الانسان الملتزم بقيمها أعلى درجات التطور الثقافي الانساني، والصيرورة لمشروع السماء في هذا الخليفة الأرضي، ونحن إذ نشدد على التنبيه فذلك ردّا لادعاءات بعض المغرضين الذين يكتبون ليشوهوا المبادئ العليا التي جاء بها قرآننا الكريم إذ يشير المؤرخ والمفكر الألماني (دان دينر) في كتابه المعنون بـــ (الزمن المختوم) (حسام الدين جمال بدر، و سيد سعيد رحماني، ٢٠١١م)(Hussam Al-Din Jamal Badr, and Syed Saeed Rahmani, 2011 AD) إلى أنَّ الخاتمية في الدين الإسلامي جعلت المسلمين يدورون في حلقة مفرغة انتزعت منهم قابلية التطور، وأنَّ اللغة العربية تشكل عائقا أمام التحاق العرب بركب الحضارة المعاصرة (بدر، و رحماني، ٢٠١١م، ١١٣ - ١٥٠) (Badr, & Rahmani, 2011 AD, 113 - 150) وهذا ما حدا بنا أن نُعرّف بعنوان (فوكوياما) وكيف اغترف، أو تناص مع نظريتنا الدينية ردّا على (دينر) والمشايعين له ممن يرفضون النظرية إذا انطلقت من الشرق ويقبلون في الوقت نفسه انعكاسها المتأخر بقيم دونها بكثير إن جاءتهم من الغرب فـــهذا المفكر الألماني الذي يوصف بالمرموق لم ينتبه إلى أنَّ ما عابه علينا نحن المسلمين من نظرية في الخاتمية يعد من المسلمات الغربية في كون الانسان الأخير ونهاية التاريخ منهم، بينما تشير النظرية الإسلامية بعدم انتسابها إلى مشرق أو مغرب، فالله ((رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ))(الرحمن: ١٧)(ar-Rahman: 17)، والقران بخاتميته ليس مغلقا بل منفتحاً على التطور البشري وسبب انفتاحه هذا هو ما ظنه (دان دينر) سبب جمود المسلمين إنها لغته، اللغة العربية، ولبيان الأمر نذكّر

بما تكلمنا فيه في الصفحات السابقة من إشارة (دارون) الى ارتباط الملكات الفكرية المتطورة باستعمال لغة متطورة للغاية، فالرسالة الأخيرة الخاتمة هي رسالة كلمات،دلالات متطورة ترتقي بالوعي إلى أماكن لا متناهية ، فإن كنا رأينا دلالة (رب المشرقين ورب المغربين) في دلالة كون الله ليس لشرق دون غرب، ولا لغرب دون شرق، وذلك لأن وعينا ينفتح الآن على كروية الأرض، وفي كون النهار، والليل متعاقبين على جزئيها وهذه الدلالة حضرت بفعل التطور الفلكي وهي نفسها اتسعت لتحمل قصدنا في شمول الربوبية الإلهية، وتتسع لغيرنا في مواطن أخرى، وخذ قوله تعالى((فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ))(المعارج: ٤٠)(Al-Ma'arij: 40) وأبحر في دلالاتها المتسعة اتساع الوعي البشري وتطوره القيمي والعلمي، وبالعودة الى قوله تعالى:((الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))(الرحمن : ١ - ٤)(ar-Rahman: 1-4) وقد أشرنا إلى نعمة الخلق وكيف ميّز الله سبحانه وتعالى هذا الانسان بالخلق والاستخلاف على غيره من المخلوقات العليا، أما البيان فهو قدرة هذا الانسان على الإعراب عن ما يدور في خلده وهو خلاصة اتحاد اللغة و الفكر فالمجلى العملى لسموه الفكري هو بيانه وتكلمه فحين يتكلم الانسان يُرى إذ من غير قدرته الإفصاحية عما يجول في خواطره لا يمكن تحديد درجته على مقياس الوعي والفكر وقد بينّا في بحث سابق(العتابي، ٢٠١٩م: ص٤٧٨)(Al-Atabi, 2019:p 478) الترابط العميق بين الفكر واللغة وكيف أنهما يمثلان وجهان لعملة واحدة تتمظهر في الكيان البشري الانساني إذ ((يرى الاتجاه الواحدي الحديث والمعاصر أنَّه لا تفكير بدون تعبير، فاللغة والفكر ...متلازمان متحايثان، فحيثما يوجد تفكير هناك لغة والعكس صحيح، يقول دولاكروا: الفكر يصنع اللغة، واللغة صانعته،... وحسب مورلوبونتي: ما التفكير إلّا لغةٌ صامتةٌ نافياً فكرة الأسبقية للتفكير على اللغة، أما هيغل فيقول: إننا نفكر في إطار الكلمات))(كول، ٢٠١٧، ص ١٧٣(العتابي، ٢٠١٩م: ص٤٧٨) (Al–Atabi, 2019:p 478)(Cole, 2017:p173,) وعليه فالإنسان بلا لغة ليس انسانا إذ إننا بتجريده من هذا العنصر البياني المائز له عن غيره يعني اننا جردناه من ملكاته الفكرية وهبطنا به حدّ البهيمية ولذلك تعد نعمة البيان و اللغة من أبرز نعم الله على البشرية بعد نعمة الإيجاد كما بيّنت ذلك آيات سورة الرحمن المباركة المتقدمة ولكنَّ الذي تلفتنا إليه سورة الرحمن هو أنَّ النعمة الأولى لله على خلقه ليس الإيجاد ولا البيان فهاتان النعمتان تردان بعد نعمة تعليم القرآن والتقديم يحيل ضرورة إلى الأولية والأهمية فما علّة ذلك؟ لاسيما وأنَّ الناحية التاريخية من المنظور الأرضي تشير إلى أسبقية الإيجاد والكلام على نزول القرآن الكريم، وفي الرد على هذا الاستفهام محاولات عديدة سنذكر أبرزها ونحاول أن ندلو بدلونا بحسب معرفتنا المتواضعة في هذا الشأن والله أعلم، يجيب صاحب الكشاف بقوله:((عدد الله عز وعلا آلاءه، فأراد أن يقدم أوّل شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه

وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها: وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، لأنه أعظم وحي الله رتبةً، وأعلاه منزلةً، ... وأخر ذكر خلق الانسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه: ليعلم أنَّه إنَّما خلقه للدين، وليحيط علما بوحيه وكتبه وما خلق الانسان من أجله، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدماً عليه وسابقاً له، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير،))(الزمخشري، ١٤٠٧ هـ:٢٧/٢)(Zamakhshari , 1407 AH: 2/27) وقال الآلوسي في الإجابة على ما قدمنا الاستفهام عنه:((ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الانسان...؛ لأنه أصل النعم، وإنما قدم ما قدم منها لأنه أعظمها، وقيل: لأنه مشير إلى الغاية من خلق الانسان، وهو كماله في قوة العلم...))(الألوسي، ١٤١٥ هـ: ٢٧ / ٩٩)(Al-Alousi, 1415 AH: 27/99) ونقول مستنيرين بهدي الله جل اسمه الكريم ومنتفعين بأقوال السابقين رحمهم الله:

أ- إن الزمن مرتبط بحدودنا الفلكية فالماضي، والحاضر، والمستقبل أزمان رهينةُ حركتنا الأرضية وقد بينّا في الصفحات السابقة البعد النسبي للزمن من الناحيتين الفلكية والثقافية، ومن نواحٍ أخرى كذلك، فكون الخلق واللغة جاءتا بحسب تأرختنا الأرضية متقدمة على نعمة تعليم القرآن لا يعني أنهما كذلك بحسب الله المتعالي على الأزمنة والأمكنة، وعليه فإننا محدودون، والله مطلق ، ومحدوديتنا هذه تحجب عنّا كل ما هو خارج مدركاتنا الحسية وذلك كون الخبرات البشرية هي خبرات تكونت عن طريق الحواس وبما أنَّ الحواس متفاوتة من ناحية الإمكانيات والقدرات فذلك يعني تفاوت الخبرات كذلك ما يوجب علينا من الناحية العلمية إدراك ذلك، والنظر بنسبية إلى معارفنا الانسانية المنطلقة من على صعيد المُدخلات الحسية البشرية، وما يوجب علينا إن كنا مؤمنين من الناحية الاعتقادية التسليم للمطلق، والتفتيش في ما نظنه صائباً إن اختلف ترتيبه مع ترتيب الذات الإلهية له، ومثلنا هنا تقديم الله سبحانه وتعالى علم القرآن على خلق الانسان.

ب- اذا كان الكلام وصناعة الأشياء هي التي انتقلت بالبشرية إلى مصاف الانسانية العاقلة مع مرحلة الانسان العاقل العاقل (Homo sapiens sapiens) ، فإن القرآن الكريم ومعرفته هي ذروة هذه العقلنة ونهايتها المتقدمة التي تؤسس للإنسان قاعدة الانطلاق المتكامل في فضاءات البناء الكوني، فتقديم علم القرآن يعني التكامل لهيكلية الذات الانسانية بمعنى أنَّ الانسان من غير هذا العلم ودلالاته المتوسعة منقوص الإنسانية، متذبذبٌ دونها في الرقي والقيمة، فالمعرفة القرآنية هي التي تكمّل خلق الانسان الأخير، وتؤسس لنهاية التاريخ المرعي بالمعرفة الإلهية حتى ينطلق هذا الانسان في مراقي الكون اللا متناهية.

ت- (الرحمن) زنة فعلان صرفياً، وهذه الزنة تفيد المبالغة التي هي الكثرة المقابلة للقلة، فالله افتتح السورة المباركة بـــ(الرحمن) لرحمته التي وسعت كل شيء وجاءت هذه الزنة مقترنة بالألف واللام التي عهدت بهذه الصفة لله دون غيره فهو جلّ اسمه الكريم يشتمل بهذه الرحمة المتوسعة كل شيء ولاسيما مخلوقه المستخلف على هذه الأرض، الإنسانِ، مؤمنهِ وفاسقهِ، خيِّرهِ وشريرهِ، برهِ وفاجرهِ، ولكنّ غير المؤمنين غافلون عن أوسع الرحماتِ قدراً وقيمة وهي رحمة معرفة القرآن، إذ بهذه الرحمة فقط نسمو صوب المشروع الذي أسستنا من أجله القدرة الإلهية ونصل به مرتبة الاستخلاف الحق، فالرحمن أتاح تعلم القرآن للجميع ولكن كثيراً من الناس غافلون، وبغفلتهم هذه ينكصون دون الوصول إلى التكامل الانساني الذي لا يتم الّا بتعلم القرآن ذي الدلالات غير المحدودة والمنكتبة بأبجدية متفوقة جداً عن كل ما سواها من اللغات، والانطلاق منه بعد فهمه وتعلمه، إذ لم يفرط الله جل اسمه الكريم في هذا القرآن من شيء. ومعجزة القرآن معجزة خالدة بدليل تحديها المستمر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وذلك لقوله تعالى:((قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))(الاسراء: ٨٨) (Al-Isra: 88) إن القرآن الكريم يذود عن إعجازه بنفسه فهو يلجم المتحدين بشريطة أن يكون هذا المتحدي عالماً لا جاهلاً وأن يكون علمه مبنياً على الوعي بلغة القرآن لأنّ القرآن تحدى البشر بأفضل لغاتهم حين تحداهم، إنَّها لغةٌ قادرةٌ على أن تحمل المعاني المتنوعة دون أن تنوء بحملها لتتسع الدلالات الإيمانية التي تنتقل بالمؤمنين من ساحة البسيط، والحسي، والمحدود إلى ساحة الرحب والمتوسع واللامتناهي، فلفظة الجنة على سبيل المثال لا الحصر تعني في اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم البستان أو الحديقة، والقرآن يستعملها بهذه الدلالة في قوله تعالى:((وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا))(الكهف: ٣٢)(al-Kahf: 32) ثم تتسع الدلالة وترحب رحابة إيمان المؤمن بعد نزول القرآن لتصبح الجنة معنىً أخروياً في النعيم الذي يتسع اتساع الوعي البشري بهذا النعيم فقد يكون النعيم بيتا أو قصراً أو امرأةً، أو خمراً أو نهراً بحسب الوعي المتلقي لهذه الدلالة المتوسعة إلى حدّ اللا حدّ إذ فيها ما يشاؤون ((لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))(ق: ٣٥)(Qaf: 35) ما هو حدّ مشيئتهم؟ إنَّه حدٌّ مفتوحُ. ثم ما هذا المزيد؟ انهَّ مزيدُ اللغة القرآنية ذات الدلالات التي تتناسب مع أبسط المتلقين كما تتناسب مع أعلى درجات الوعي، وبما أنَّ القرآن الكريم بهذا المستوى الأعلى من الأساليب كان لابد أن يأتي بلغةٍ قادرةٍ على احتمال هذه المباينة الكبيرة بين ما هو أسلوب البشر وبين ما هو أسلوب ربَّ العزة جلَّ اسمه الكريم وهذا الأمر هو الذي يحدو بنا صوب تصور أرباب هذه اللغة وحملتها زمن نزول هذا الوحي على نبينا الكريم (ص) الذي بقي يتحداهم في مكة ثلاث عشرة سنة على أن يأتوا

بمثل هذا القرآن فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات أي سور لا تلتمس إلّا الصدق الفني في الأسلوب من غير أي وجهٍ إعجازيٍّ آخر، قال تعالى: ((قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ))(هود: ١٣)(Hud: 13) إن القرآن الكريم يتحدى من خلال اللغة سدنة اللغة، فالعرب إن كانوا قبل القرآن يعبدون أوثاناً فإنهم عبدوا لغتهم وفنونها الشعرية، والنثرية حتى لم يزوج الرجل ابنته قبل أن يسمع ذلاقة خاطبها بكلام يخطبها من خلاله ولذا وسمت جلسة طلب يد المرأة بالخطبة، ثم إنهم لتقديرهم العالي لجلال الكلمة فيهم وأسلوبها علقوا عيون شعرهم على جدران الكعبة فكانت المعلقات مع أوثانهم محورا للطوفان والعبادة، فاللغة العليا هي علمهم الذي بلغوا به مراقي متقدمة حتى قال بعضهم كما ينقل ابن سلام : ((كان الشعر علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منهُ))(الجمحي، د.ت : ١ / ٢٤)(Al-Jamhi, d. I, D: 1/24) ثم بعد هذا النزوع اللغوي جاءهم التحدي بها فما كان قول بليغهم الذي أرسل لتوصيف الوحي الإلهي بغية النيل منه إلّا أنْ قال: ((إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنَّه ليعلو وما يعلى، وإنَّه ليحطمُ ما تحته))(الدمشقي ، ١ / ٣٢)(Al-Dimashqi, 1/32)، قال الجاحظ : ((بعثَ اللّهُ محمداً (ص) اكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة ، وأشّد ما كانت عُدةً ، فدعا أقصاها، وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، ...، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورةٍ واحدةٍ ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف عن نقصهم ، ما كان مستوراً ، .... قال : فهاتوا مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيزه ، ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم انهَّ قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وافسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه))(الطبري، ١٣٨٧هـ: ٢/ ٥٠٦)(Al-Tabari, 1387 AH: 2/506) لذا عجزوا عن مجابهته، أو دحضه، أو تفنيده فإنْ كان السحرة قد خروا سُجداً عندما رأوا معجزة موسى (ع) تلقف ما صنعوا فأن الجاهليين خروا سجدا كذلك منسحبين إزاء مجابهة أسلوب القرآن الكريم حين رأوه يلقف كل بلاغتهم بأسلوبه المعجز وما كان لهم من تبرير الّا أن قالوا إنَّه ((سحرٌ يُؤثر))(المدثر: ٢٤)(Al-Mudathir: 24) وذلك أنَّ اللغة العربية قبل القرآن شيء وبعده شيءٌ آخر فإن كان الجاحظ يقول:((المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنَّما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ...))(الجاحظ، ١٩٥٠ : ٢ / ١٣١)(Al-Jahiz, 1950: 2/131) فالقرآن الكريم يقول عكس

ذلك فالألفاظ المطروحة والشائعة لدى الجاهليين جميعا يأخذها ليكسوها معاني، ودلالاتٍ جديدةٍ لم يكن لهم بها دربة، أو تصور بمعنى أنَّ الجاهلي كان محدود التصور والفكر وحين أراد أن يعبد عبد إلاهاً حسياً أي وثناً وشخّصه بصورة حسية عيانية مثله مثل أصحاب الديانات الأخرى الذين شخصوا الإله حين قالوا:((عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ))(التوبة: ٣٠)(at-Taubah: 30) أو ((الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ)))) (التوبة: ٣٠)(at-Taubah: 30) وقد قدمنا القول في ذلك فلما جاءت الرسالة الخاتمة مع الانسان الخاتم (ص) كانَ لابَّد من تغيير التصورات والأفكار وقد بينّا العلاقة بين اللغة والفكر فجاءتهم لغة القرآن بهذه الصدمة التي تستثير مكامن الوعي الانساني ونقله من الحسي إلى المجرد فجاء اللفظ القرآني الذي كان مطروحا للتداول الجاهلي، ومشاعاً فيهم بمساحةٍ دلاليةٍ واسعةٍ لم يكن لهم عهد بها فهذا اللفظ بدلالته القرآنية الجديدة عليهم كان مبُايناً جدا للفظ نفسه وهم مستعملوه ما أعجزهم وأذهلهم ، فاللفظ القرآني مغاير للفظ الجاهلي بالنسبة نفسها التي تغاير فيها العقيدة الإسلامية الديانة الوثنية فمهمة النبي (ص) كانت مهمة تغيير الأفكار ومن أجل تغيير هذه العقول الحسية كان لابد من لغة و فكر جديد يحققان للإنسان الأخير المتجوهر بفضيلة القيمة الاستخلافية ذلك الزخم الذي ينطلق بعده في فضاءات الانسانية الحقة التي ترفض كل عوالق البدائية ،والوثنية، والتقديس المزيف وتعلن انسانا واعيا يعمر الأرض بالفضيلة والنماء، وللتدليل على حجم المغايرة بين اللغتين الجاهلية والقرآنية لابد أن نأخذ ولو شاهداً يسمح بتبيان الفكرة مع إلفات نظر القارئ الكريم إلى محدودية استشهادنا لموجبات البحث الأكاديمي التي تلزمنا بمعايير عددية معينة لعدد الصفحات سائلين المولى عز وجل أن يمكننا من استئناف البحث في مواطن أخرى، فمما وقفت إزاءه لغة القرآن معالجة التصورات الجاهلية قضية الاعتقاد بالإله فقد شخصوا الإله فما كان من القرآن إلّا أن يعلن لهم دحض تصوراتهم الحسية بقوله: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))(الشورى: ١١)(ash-Shura: 11) وهنا أشير إلى القارئ الكريم أنَّ ما سيأتي من كلام هو حدود الباحث المتواضعة في فهم دلالة هذه الكلمات المُشعات معاني إعجازية بمعنى أنَّها منفتحة على مديات الفهم اللامتناهية بحسب وعي، وإيمان من يتلقاها لقد أراد جلَّ اسمه الكريم أن يبدل تصوراً جاهلياً للذات الإلهية فقال في توصيف ذاته العلية ((ليس...)) وليس هي من الألفاظ الفاشية في العرب فهي من اخوات (كان) ولكنها وإن كانت مألوفة لدى العربي البليغ فأنها ستأتي هنا بمعناها نفسه ولكنَّها مع تمام الجملة ستبهره، فهي تفيد النسخ وإزالة الشيء لتنفي عن الذي يليها معناه، والذي يليها في الآية المباركة ((كمثله)) وسنؤخر الحديث في التفصيل البلاغي الإعجازي لــها، وسنتناول الكلمة بوصفها خبرا لــ (ليس) و (المثل) أي الشبيه بمعنى نفي الشبه عن الذات الإلهية فهو جلَّ اسمه الكريم ليس كمثله (شيءٌ) وشيءٌ هنا جاءت على التنكير لتفيد الإطلاق لأيَّ شي متصور

بمعنى إن كنت تتصور أي شيء فربك بخلاف أي شيء يمكنك أن تتصوره، لأنه لا يخطر بالذهن البشري كما يشير علماء النفس في باب الأحلام إلاَّ ما كان مُلاحظاً بإحدى الحواس البشرية، أو أكثر، أو الناتج من علاقة تفاعلية بين هذه المدخلات الحسية للكائن البشري، إن تصوراتنا محدودة في نطاق خبراتنا الحسية فكلُّ ما خطر ببالنا عن الله جلَّ اسمه هو تعالى بخلافه من ناحية التصور لأنه لو كان التصور قادرا على إدراكه لم يكن هو، فهو سبحانه القادر، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً، فمن عظمته أنَّ العقل يكلُّ دون تصوره أبداً، فإن أردنا أن نجمل الدلالة المتصورة من هذه الآية الكريمة فنقول على سبيل التشريح والتبسيط ما يلي :

ليس = النفي (لا)

كـــــــــ = للتشبيه (يشبه)

مثله = للتشبيه (شبيهه)

شيء = نكرة (الإطلاق والإعمام)

فتكون الدلالة : لا يشبه شبيهه شيءٌ مطلقاً على سبيل الإعمام والإطلاق ، والدلالة هنا تحلّق بنا بعيدا جداً عن كل مديات التصور البشري للذات الإلهية فهي تبتعد عن الحقيقة الإلهية في التصور البشري مرتان على سبيل التكثير والإعمام فهو سبحانه لم يقل واصفا ذاته العلية (ليس كشيء) أو (ليس مثله شيء) بل قال لا يشبه شبهه شبيه فسبحان الله عما يصفون، أما إذا عدنا إلى ما أرجأنا الحديث فيه وهي الدلالة البلاغية لـــــ (كمثله) فنجد أنَّ النحاة يقولون أنّها زائدة وهي ليست كذلك دلاليا، فإن شرّحنا مضمونها نجد أنَّ في التشبيه درجات وأعلى درجات الشبه ما حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه أما في الآية المباركة محل البحث فإننا نجد كلا الركنين حاضرين، فلماذا؟

وهنا نسترشد بما قدمه د.فاضل صالح السامرائي في كون هذا الحضور لركني التشبيه في هذه الآية المباركة وجهٌ إعجازيٌّ مبهرٌ للتدليل على الابتعاد عن التشبيه للذات الإلهية فالمغزى منها بيان عدم قدرة التصور على إدراك كنه الله فما كانت الألفاظ الواردة فيها إلاَّ تركيباً دلالياً مبهراً يعكس القدرة على عدم القدرة البشرية لهذا التصور فحضر ركنا التشبيه للابتعاد بالتشبيه دون القدرة عليه فالله ليس له مثيل ولو من وجه بعيد(لقاء متلفز للدكتور فاضل صالح السامرائي

a televised meeting by Dr. Fadel Saleh Al-Samarrai)(https://www.youtube.com/watch?v=abSBb9qJUqo

(https://www.youtube.com/watch?v=abSBb9qJUqo.

إنهَّ كلامٌ معجزٌ وكتابٌ معجزٌ أثبت بإعجازه هذا صحة النبوة وفي هذا المنحى ينبهنا د. محمد محمود شاكر إلى أمرٍ مهمٍ، فصحةُ النبوات لا تعني إعجاز كتبها الدينية فالتوراة و الإنجيل منزلة من الله سبحانه وتعالى ولكن لا يوجد من يقول بإعجازهما، أما قرآننا ذو الألفاظ

المنظومة إعجازيا لتغيير الأفكار التي تؤثث للمعرفة السوية فهو الدليل على صحة النبوة المحمدية، فصحة النبوة كما بينا ليست دليلا على إعجاز القرآن والخلط بين هاتين الحقيقتين في دراسة إعجاز القرآن أدى إلى تأخر علم (إعجاز القرآن) و (علم البلاغة) (مالك بن نبي، ١٩٨٧م:ص٢٥) (Malik bin Nabi,1987 AD: p 25) ،أما معجزة القرآن الكبرى، والأولى فهي إعجاز الدلالة البيانية المغايرة للغة العرب ولسائر اللغات وللناس والجن قال تعالى: ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا))(الجن: ١)(al-Jinn: 1) وقال سبحانه وتعالى: ((وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ)) (التوبة: ٦)(at–Taubah: 6) وقال جل اسمه الكريم:((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))(سبأ: ٢٨)('Saba: 28) وحين نشير الى إعجاز اللغة نحيل إلى ارتباطها العضوي بالفكر وما لهذه اللغة المعجزة من قيمة فكرية متقدمة فالقرآن الكريم لا يتفاوت إنما يتفاوت ما سواه من كلام فقد أعجز المشركين منذ آياته، وسوره الأولى، وبقي معجزاً لكل الخلائق بعد تمامه بمعنى أنَّ القرآن الكريم لا يتفاوت بالكمال، فقليله و كثيره كاملٌ أما أساليب البشر فهي متفاوتةٌ، ومتذبذبةٌ بخلاف كتابنا المعجز الذي هو سواء في الإعجاز، هذا الإعجاز الذي لم يدفع الأمم المختلفة الألسن للدخول في الإسلام فحسب، بل دفعها للدخول في العربية التي تملك الشفرات الأولية لسبر هذا الكتاب الرباني المذهل وعليه إن كنا نريد أن ندخل التاريخ، وأن ننسجم مع أطروحة نهاية التاريخ بمعنى كماله المنهجي التي يهبها القرآن الكريم لصناعة الانسان الأخير انسان الاستخلاف الإلهي فذلك لن يكون إلّا بالتحلق حول هذا الكتاب العظيم وإدراك معاجزه الدلالية، فالمفتاح هو لغتنا التي نكصنا دون السبر في أغوارها، هذه اللغة التي هي بين حدين، حدّ اللغة الجاهلية، وحدّ اللغة القرآنية وما بينهما مابين السموات والأرض، وبين الكفر والإيمان إذ لا يصلح آخر هذه الأمة الّا بما صلح به أولها ومن هنا يجب الالتفات إلى عمق المعركة وخبثها بين معسكري الإيمان والكفر، فالكفر يحاول إيهامنا بأن لغتنا القرآنية عامل من عوامل تراجعنا الحضاري ويبرر لنا ذلك بخروجنا عن دائرة التاريخ البشري، ويلتئم للأسف حول ادعاءاته مغيبونُ أو حاقدون، والقرآن يدعونا للمعرفة الكبرى بلغتنا العليا، والتي بكتاب الله وصلت المرتبة الأعلى من الدرجات البيانية والدلالية، ومن هنا ندرك أنَّ مسألة إعجاز القرآن هي أعقد مشكلة يعانيها العقل الحديث، فالمشكلة كامنة في ثقافة اللغة والصورة، والجمال جميعا، والتي نجمعها تحت ثنائية اللغة و الفكر.

نتائج البحث:

١- يخلص البحث إلى أنَّ الايات القرآنية المعجزة دلالياً هي (لقوم يعلمون) فبدون المعرفة اللغوية و الفكرية سيبقى القارئ المجرد عنها في دائرة عدم الانتباه، والمعرفة للبعد الاعجازي العظيم للقرآن الكريم.

٢- ينبه البحث الى ضرورة الالتفات الى خطورة الاستطالة الزمنية والمكرورة لبعض المتون التفسيرية إذ تحجب خلفها امكانية رؤية ابعاد دلالية تأويلية اخرى، ما يحبس بعض الايات القرآنية في دائرة الثبات الذي لا يتناسب مع التحرك والتطور للبشر والزمن والأمكنة.

٣- هناك صراعٌ دائمٌ بين النوايا الحسنة للذات البشرية، وبين انساقها المنغرسة فيها وهذا ما رأيناه حاضراً في قوم موسى (ع) من انتصار النسق الوثني المتحكم على النية الايمانية الحديثة في تلك الذوات.

٤- إنَّ المعاجز الحسية جاءت متناسبة مع الطبيعة الثقافية لعصر نزولها، فهي تتعامل مع ذهنياتٍ حسيةٍ لا مجردةٍ في محاولة لسحبها صوب الوعي المتقدم بلحاظ التراتب العقلي للذهنيات الثقافية.

٥- إنَّ التغيير الثقافي يحتاج ممارساتٍ ثقافيةٍ مستمرةٍ ووعياً ذهنياً مرتفعاً يتفوق على حد الابهار الصوري، والذي يختزل بعد مشاهدته بالذكريات التي تبهت بمرور الزمن أو التي قد يشوبها التداخل بالمخزون النسقي للذوات المتذكرة، وهذا ما تجاوزته المعجزة القرآنية بأن جعلت الإبهار من باب اللغة و الفكر.

٦- تطور الانسان ليس بسبب تكيف أعضاء جسمه من فكٍ وأسنانٍ وغيرها كما يرى بعض العلماء فحسب، بل أنهَّ تطور بسبب الثقافة التي كان وسطها الناقل على الدوام اللغة و الفكر.

٧- إذا كان الكلام وصناعة الأشياء هي التي انتقلت بالبشرية إلى مصاف الانسانية العاقلة مع مرحلة الانسان العاقل العاقل (Homo sapiens sapiens) فإن القرآن الكريم ومعرفته هي ذروة هذه العقلنة ونهايتها المتقدمة التي تؤسس للانسان قاعدة الإنطلاق المتكامل في فضاءات البناء الكوني.

٨- يؤشر البحث أنَّ (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) ليست ما ذهب إليه (فوكوياما)، بل إن التاريخ ينتهي بمعنى الاكتمال مع (الرسالة القرآنية)، وإن الانسان الأخير هو (الانسان القرآني).

٩- يؤشر البحث اتساع الدلالة القرآنية بحسب الوعي البشري وتراحب هذه الدلالة بشكل شعاعي له نقطة بداية وليست له نقطة نهاية، ولتجسيد هذا الأسلوب المعجز كان لا بد أن تكون الوسيلة لغةٌ قادرةٌ على احتمال هذه المباينة الكبيرة بين ما هو أسلوب البشر وبين ما هو أسلوب رب العزة.

١٠- إن اللغة العربية قبل القرآن شيءٌ ،وبعده شيءٌ آخر فقد كسا القرآن الكريم الألفاظ الجاهلية معاني ودلالات جديدة لم يتصورها الجاهليون ما جعل هذه اللغة العظيمة بين حدين، أدناهما اللغة الجاهلية مع فصاحتها وروعتها وأعلاها مع القرآن الكريم في إعجازه المبهر، ومابين هذين الحدين تتراتب أساليب البلغاء وبراعة الشعراء.

المصادر:

المصادر:

١- ابن نبي، مالك (١٩٨٧).الظاهرة القرآنية ، ترجمة : عبدالصبور شاهين، دار الفكر، دمشق-سورية،ط٤، ١٩٨٧م.

٢- الالوسي ،شهاب الدين محمود بن عبد الله (١٢٧٠)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، ط١.

٣- اولمان ، ستيفن (١٩٩٧).دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتحقيق: كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر.

٤- بدر ، حسام جمال الدين،ورحماني، سيد سعيد (٢٠١١).الزمن المختوم حالة الركود في العالم الإسلامي، دان دينر، ، منشورات الجمل، كولنيا- ألمانيا ، ط١.

٥- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر (١٩٥٠).الحيوان، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، مصر.

٦- الجمحي ، محمد بن سلام (ب ت).طبقات فحول الشعراء ، تحقيق:محمود محمد شاكر، دار المدني، د.ط، د.ت : ١ / ٢٤.

٧- الدمشقي ، ابو الفداء عماد الدين (ب ت).السيرة النبوية ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

٨- الزمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمرو بن احمد (١٤٠٧).الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي ، بيروت-لبنان، ط٣.

٩- الطبري ، ابو جعفر(١٣٨٧).تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري،دار التراث، بيروت-لبنان، ط٢.

١٠- عبد الله ، فراس صلاح (٢٠١٠)نظرية النظم والأسلوبية دراسة توثيقية نقدية ، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع:، بغداد-العراق١٣.

١١- العتابي ، فراس (٢٠١٨)حكاية العقل الناقص والجسد الموشوم(نقد ثقافي في أنساق المرأة المهمشة)، الموسوعة الثقافية، بغداد-العراق.

١٢- العتابي ، فراس صلاح عبد الله (٢٠١٩).المرأة والذاكرة المتحيزة،مجلة آداب المستنصرية، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية، بغداد- العراق، المجلد ٤٣، العدد ٨٧.

١٣- القزويني ، محمد بن عبد الرحمن (٢٠٠٣) الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)،تحقيق: ابراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان،ط١.

١٤- كاظم ،جواد (٢٠١٩) اللسانيات الانثروبولوجية من منظور معرفي لدراسة بنية الثقافة العراقية، دار كنوز المعرفة، عمان-الاردن.
١٥- كول ، مايكل (٢٠١٧).علم النفس الثقافي ماضيه ومستقبله، مايكل كول، ترجمة:عادل مصطفى، وكمال شاهين، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر.
١٦- المجلسي ،محمد باقر (١٤٣٠) الإمام المهدي في بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، إعداد الشيخ ياسر الصالحي، مؤسسة أعلى المطبوعات، بيروت-لبنان، ط١.
١٧- نويهض ، عادل (١٩٨٨) معجم المفسرين من عصر صدر الاسلام وحتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية .

References:

1- Abdullah, Firas Salah (2010) Systems theory and stylistics, a critical documentary study, Dar Al-Farahidi Publishing and Distribution: Baghdad-Iraq 13.
2- Noueihed, Adel (1988) A Dictionary of Interpreters from the Era of Islam to the Present Age, Noueihed Cultural Foundation.
3- Kazem, Jawad (2019) Anthropological Linguistics from a Knowledge Perspective to Study the Structure of Iraqi Culture, Treasures of Knowledge House, Amman-Jordan.
4- Al-Atabi, Firas (2018), the story of the incomplete mind and the tattooed body (cultural critique of the marginalized woman's patterns), Cultural Encyclopedia, Baghdad-Iraq.
5- Cole, Michael (2017). Cultural Psychology of its Past and Future, Michael Cole, translation: Adel Mostafa, Kamal Shaheen, Roya Publishing and Distribution, Egypt.
6- Al-Majlisi, Muhammad Baqir (1430), Imam Al-Mahdi in Bahar Al-Anwar Al-Jami’a to collect news from the pure imams, prepared by Sheikh Yasser Al-Salhi, the highest publication, Beirut-Lebanon, 1st edition.
7- Al-Qazwini, Muhammad bin Abdul Rahman (2003), clarification in the science of rhetoric (meanings, rhetoric, and adorable), investigation: Ibrahim Shams El-Din, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut - Lebanon, 1st edition.
8- Ullman, Stephen (1997). The Role of the Word in Language, Translation and Inquiry: Kamal Bisher, Dar Gharib for Printing and Publishing.
9- Badr, Hussam Jamal Al-Din, Rahmani, Sayed Saeed (2011). Sealed time, the state of stagnation in the Islamic world, Danner, Camel Publications, Cologne-Germany, 1st edition.

10- Al-Atabi, Firas Salah Abdullah (2019). Women and Biased Memory, Al-Mustansiriya Literature Journal, College of Arts - Al-Mustansiriya University, Baghdad-Iraq, Volume 43, No. 87.

11- Al-Zamakhshari, Abu al-Qasim Mahmoud bin Amr bin Ahmed (1407). Finding out the facts of the mysteries of the downloads, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut-Lebanon, 3rd edition.

12- Al-Alusi, Shihab al-Din Mahmoud bin Abdullah (1270), Spirit of meanings in the interpretation of the Great Qur'an and the Seven Bladder. Achievement: Ali Abdel-Bari Attia, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut - Lebanon, 1st edition.

13- Al-Jumhi, Muhammad bin Salam (B.T.), classes of stallions of poets, investigation: Mahmoud Muhammad Shaker, Dar Al-Madani, d. I, D: 1/24 0.

14- Damascene, Abu al-Fida 'Imad al-Din (B.T.), The Prophet's Biography, Dar Al-Maarefa for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon.

15- Al-Tabari, Abu Ja`far (1387). The History of al-Tabari, the History of the Apostles and Kings, and the Link of the History of al-Tabari, Dar Al-Turath, Beirut-Lebanon, 2nd edition.

16- Al-Jahiz, Abu Othman Amr bin Bahr (1950). The animal, investigation and explanation: Abd al-Salam Muhammad Harun, company library and printing press Mustafa al-Babi al-Halabi and his children, 2nd edition, Egypt.

17- Ibn Nabi, Malik (1987). The Qur'anic Phenomenon, translated by: Abd Al-Sabour Shaheen, Dar Al-Fikr, Damascus-Syria,